

السير و السرى ، إلى طيبة و أم القرى

بسم الله الرحمن الرحيم:

قال أخونا عادل خزرون :

هذه قد سطر أحداثها بينانه ، و اعتصرها من ذاكرته ، في جزء لطيف مفرد ، أسماه "ملامح من رحلتي الحجازية" ، قال فيه بعد الحمدلة و الصلاة و السلام :

كانت رحلتي الأولى برّاً عام ١٣٨٢ هـ ق ١٩٦٢ م ضمن وفد من بني بلدي في سيارة مشتركة ، زرنا خلالها الجزائر و تونس و ليبيا و مصر ، ثم امتطينا طيارة لضيق الوقت إلى جدة ، وبعد انتهاء الحج عدنا بجرا إلى الأردن ثم زرنا سورية و لبنان ، و منه بجرا إلى الإسكندرية فيرشلونة فالمغرب .

و كانت رحلة طيبة طالت ثلاثة أشهر و نصف لولا ما شأها من ضياع سيارتنا بمصر حيث استولى عليها المصريون بميناء الإسكندرية ظلما و عدوانا بجيلة مفتعلة ، و تفصيل ماجريات الرحلة و وصف المنازل و الديار و الأخلاق و العادات و المشاهد يطول جدا ، و يحتاج إلى وقت ، و المقصود الآن الإشارة إلى ما تم لنا من لقاء بعض أهل العلم ، و ما استفدناه من هذا اللقاء ، و زيارة بعض مشاهد مشاهير أهل العلم للتعاطف و الاستذكار .

فأول ذلك بعد خروجنا من المغرب زيارة مدينة تلمسان الجميلة الوداعة ، و قد صلينا بها صلاة الجمعة بالجامع الكبير الذي هو أثر من آثار المغاربة بصحنه و نافورته و صومعته المربعة المزخرفة بالزليج المغربي ، و من كتابة منقوشة على الجدار القبلي من المسجد علمت أن بمقصورته خزانة كتب و ضريح أحد ملوك تلمسان المشهورين من بني زيان ؛ أظنه : يغمراسن ، لم يتح لي الوقوف على الكتب و لا القبر ، و كان خطيب الجمعة الشيخ العربي الحصار (و للتاريخ فإن أولاد الحصار هؤلاء هجر منهم إلى المغرب فكان منهم بتطوان إلى عهد قريب و انقرضوا ، و مازال منهم إلى الآن بسلا)، و كان الرجل يخطب و يُطعم كلامه باللهجة الدارجة للإفهام ، و ربما عبر خلالها باللغة الفرنسية لزيادة البيان ؛ أننا لاحظنا أول ما لاحظنا أن الجزائريين حتى المتعلمين منهم يخللون كلامهم بالفرنسية، و هذا من أثر الاستعمار الفرنسي الذي طال و استطال قرابة قرن و نصف ، و لولا ما من الله به عليهم من قيام جمعية العلماء المسلمين بمهمة و عناية

^١ انظر عمدة الراويين ١٢٦/٣ .

العالمين الشيخين عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي الذين إليهما بعد الله تعالى يرجع الفضل في بقاء القرآن و اللغة العربية بينهم و لا سيما في بعض المدن و المراكز التي كان نشاط العلماء جديا بها رغم اضطهاد الفرنسيين لهم و محاربة التعليم الإسلامي و اللغة العربية ، إضافة إلى الصوفية و زواياهم الجادة في تخدير أعصاب الشعب وأمره بالاستسلام للحكام و عدم مناهضة سياستهم ، ثم صعدا جبل العباد مارين بمقبرة به ضريح الشيخ محمد بن يوسف السنوسي صاحب العقائد ، و بمصلى الجبل - هو عامر بالمباني و السكان- تقع مدرسة أبي عنان المريني و مسجده الذي بناه قرب ضريح أبي مدين الأندلسي رحمه الله ، و قد دخلنا المسجد و هو مغربي في هندسته و صومعته التي تضارع صوامع فاس .

و قد زرنا بالجزائر مدنا كثيرة منها : ابن العباس ، و تلمسان ، و قسنطينة و الجزائر العاصمة ، و سطيف ، و عنابة ، و غيرها . و مكثنا أياما جميلة بالعاصمة ، زرت خلالها ضريح الشيخ عبد الرحمن الثعالبي الفقيه المشهور صاحب التأليف العديدة كتفسيره "الجواهر الحسان" ، و "العلوم الفاخرة" ، و غيرها ، و كضريح مولاي محمد ، و قد لاحظت من مظاهر التغريب الغربية اللافتة للنظر : كتابة الرخامات على القبور بالفرنسية مع صورة المقبور بشكل كتاب مفتوح ، و كان نزولنا بفندق قريب من جامع كتشاوة القريب من ساحة الشهداء حيث الجامع الحنفي الشهير الذي تحمل صومعته المغربية ساعة كبرى وسطه ، و هو مبني على الطراز التركي ، و قريبا منه يقوم الجامع الكبير الذي هو من بناء المرابطين ، و ما زال شكله و هندسته و صومعته المربعة القصيرة ، أما جامع كتشاوة فقد كان من المساجد التي حولها الفرنسيون إلى كنائس ، فلما نصر الله الجزائريين عليهم وأجلوهم عن الوطن أعادوا هذه المساجد إلى وضعها الإسلامي ، و أزالوا الصليبان من أبوابها و قبائها و أبراجها ، و كانت أول جمعة أقيمت بعد إعلان الاستقلال بهذا المسجد الفخم ، و خطب به فيها الشيخ البشير الإبراهيمي خطبة نارية بأسلوبه العجيب و لهجته الصادقة . و ما زالت نبراته ترن في آذاننا و قد أذيعت يومها بالراديو . و لذلك كان من أهم مقاصد الرحلة الاتصال بمثل هذا الشيخ والأخذ عنه . فسألت عنه كثيرا ، و من عجب أنني لم أجد من يعرفه - هو أشهر عالم جزائري عم صيته المغرب و المشرق قديما و حديثا ، و مواقفه في مناهضة الاستعمار ما زالت ماثلة في آثاره خصوصا جريدة "البصائر" التي كانت تعتبر بالمغرب و الجزائر و تونس بمثابة قبلة قوية المفعول يحاكم و يعاقب من ضبطت عنده ، فكان الناس يتواصلون بقراءتها ، و يبذلون ما شاء الله للحصول عليها خصوصا بعد ظهور طلائع الأزمة السياسية بالمغرب التي انتهت بنفي الملك محمد الخامس و خلفه ، فكان الشيخ البشير رحمه الله يتصدى لكشف المخطط الفرنسي و فضح سياسة فرنسا و عملائها كعبد الحفي الكتاني و التهامي

الكلاوي ، و كان نصيب الكتاني من حملاته كبيرا نظرا إلى مركزه العلمي و شهرته بالمشيخة^٢ ، و معرفة الشيخ البشير به- قلت : و ظللت أسأل عنه غير يائس إلى أن لحت شابا وسيما يتأبط كتبنا و جرائد فتوسمت فيه المعرفة و سلمت عليه و سألته عن أحوال البلد وما جرت به العادة ، ثم سألته عن الشيخ ، فأخبرني أنه يعرفه و أن سكناه بجي حيدرة ، و هو بعيد وأشار عليّ أن أركب الحافلة رقم كذا ، و بعد الوصول إلى الحي و هو كبير واسع اسأل الشرطة ، فشكرته و امتطيت الحافلة إلى الحي و قصدت الشرطة فلم أجد عندهم خبرا عنه ، و لما رأوا حيرتي وتعجبي أمرني أحدهم أن أتصل بمحطة البتزين قائلا : إن جميع أهل الحي يمرون بسياراتهم عليها و أصحابها يعرفونهم ، فقصدتها و سألتهم فأفادوني أن رجلا أشيب أعرج يمر أحيانا قليلة عليهم ، و أنه يسكن بمفترق الطرق القريب ، و أشاروا إليه ، فذهبت و وجدت دكانا للمأكولات ثمة فسألت صاحبه ، فأشار إلى فيلا صغيرة فقصدتها و طرقت بابها مرارا إلى أن عزمت على الانصراف آيسا ، فإذا بالشيخ يطل ملتفتا خارج الباب فتقدمت و سلمت ، فسأل عني فتعرفت إليه فرحب ، و استدعاني للدخول خلفه ، و لأول مرة رأيت الشيخ عيانا و علامة الهرم و الإعياء بادية عليه ، و عاهة العرج كبيرة ، فجلسنا في حجرة متواضعة لا أثاث فيها و لا فراش إلا بساطا متواضعا و منضدة صغيرة جدا عليها جرائد و مجلات و عصا الشيخ ، و بعد حديث قصير اعتذر الشيخ عن خلو البيت قائلا بأن أثاثه و كتبه و أهله ما زالوا بالقاهرة ، و أن الإخوان (يقصد الحكام من جبهة التحرير : ابن بلة و رفاقه) لم يخصصوا له مكانا مناسباً واسعاً يسعه ، و تحدث بمرارة عن جفوتهم له ، و أنهم لم يمنحوه إذنا بزيارة المغرب للاتصال بإخوانه من معارفه من زعماء المغرب و علمائه ، و سمى لي عددا منهم ما زلت أذكر : ابن العربي العلوي و كنون و داود و علالا الفاسي و غيرهم ، قال : و ما زال يطالبهم و يلح عليهم و هم يسوفون ، كما تحدث الشيخ عن بعض ذكرياته بالشرق كالحرمين و دمشق و العراق و مصر ، و عن نشاطه الصحفي و التعليمي ، و كنت أحب أن أدون ذلك لو كان الظرف يسمح ، و لم يكن متيسرا إذ ذاك اقتناء آلة تسجيل ، و أخيرا طلب مني الشيخ أن لا أنساه من دعاء صالح من مظان الإجابة بالحرمين ، و أن أزوره في العودة ليأنس بي رحمه الله و جزاه خيرا ، و لم يكتب لي أن أزوره لأنني عدت إلى وطني عن طريق إسبانيا ، و كنت سألت الشيخ عن أزوره بتونس فسمى لي شيئا كتبيا بالقرب من جامع الزيتونة ؛ لعل اسمه : صالح الثميني ، و قد زرتة و جلست معه ، و هو من علماء الإباضية ، ثم ودعت الشيخ البشير و خرجت ناسيا نظارتي الشمسية بمزله و لم أعد إليها رغم اعتيادي لبسها ،

^٢ و له كتاب في الرد عليه سماه : نشر الطي من أعمال عبد الحي . ذكره عبد السلام بن سودة في كتابه دليل مؤرخ المغرب

و اشترت أخرى ، و ذلك لبعده الحي و إعجال السفر ، و لم أكن عرفت السبب في إضراب الشيخ البشير عن ذكر علماء تونس كابن عاشور و ابنه و الشاذلي النيفر و حسن حسني عبد الوهاب ، حتى اقتنيت مجموعة آثاره المختارة فقرأت ردوده على الشيخ الطاهر ابن عاشور ، و من سار على نهجه في موقفهم من محنة التجنيس الذي فرضه الفرنسيون على التونسيين فكان مثار أخذ و رد و سبب امتحان عسير لكثير من العلماء و الكتاب ، و كان موقف الشيخ الطاهر غير مشرف ، و هو شيخ الإسلام و كبير علماء الزيتونة ، رحمه الله و سامحه ، و حاولت الاتصال بالسيد توفيق المدني صاحب "تاريخ الجزائر" فلم أفلح كما سألت عن الشاعر محمد العيد ، فقيل بأنه يسكن ببلدة تبعد عن العاصمة بألف كيلومتر ، و في مرورنا بمدينة سطيف دخلت مسجدا على الطريق فوجدت بها حلقة كبيرة و وسطها رجل ملتج كبير فأردت الجلوس بها فنظروني شزرا فخرجت و علمت بعد ذلك أنهم إباضية ؛ أي من بقايا الخوارج و يسموهم هناك الخوامس ؛ أي أصحاب المذهب الخامس .

و بعد أيام ودعنا الجزائر و دخلنا التراب التونسي ، و وصلنا العاصمة ليلا و نزلنا بحي شعبي، و في الصباح خرجت و سألت عن ضريح كبير ذي قباب و مسجد قريب من الفندق تظهر عليه علامة القدم ، فلم أجد من يعرفني كما ينبغي حتى اتصلت بالشيخ الفاضل ابن عاشور رحمه الله فأخبرني بأن الضريح هو لسيدي مُحرز الذي سأل عبد الله بن أبي زيد القيرواني أن يؤلف له رسالته المشهورة في الفقه المالكي لأنه كان مدررا يقرئ الصبيان ، فألف له الشيخ الرسالة ليحفظها النساء والصبيان ، أما المسجد فيعرف بمسجد (سبحان الله) ، قال : و هو من المساجد العتيقة بتونس مر على بنائه نحو ألف سنة ، و قضينا بتونس أياما طيبة زرنا فيها عددا من الأحياء و قصور الباي (سلطان تونس) التي حول أحدهما إلى متحف كبير ، و صعدنا إلى تل مشرف على المدينة مكسو بالأشجار الوارفة الظلال و على قمة التل بناء غاية في الإتقان و الجمال ، قيل لنا بأنه منتزه البايات ، كما زرنا جامع الزيتونة و صلينا به جمعة و شاهدنا من تقاليدهم المبتدعة في ذلك ما قضينا منه العجب ، و من كيفية خروج الإمام و كان وقتها من الأشراف الذين يتوارثون الخطابة بها (سماه الشيخ الفاضل و نسيت لطول العهد) فخرج من المقصورة نحو أربعة أفراد لابسين ثوبا خاصا مزخرفا يمشون الهوينا و خلفهم الخطيب الذي صعد المنبر بحركات متزنة ، و صعد أحدهم معه إلى منتصف درج المنبر و جلس إلى النهاية ، و هؤلاء هم الذين يؤذنون و يقيمون الصلاة بصوت واحد بشكل مستغرب منغوم كأنهم يؤدون أغنية ، و أخبرني الشيخ الفاضل أن ذلك تقليد من أيام الأتراك و عليه أحباس لا يستطيعون الخروج منه ، و زرنا بعد ذلك جامع القصبية حيث القصور السلطانية و دواوين الحكام ، و بالقرب منها يرقد علي بن زياد

أحد تلامذة الإمام مالك و رواة موطنه ، و هو أول من أدخلها إلى إفريقيا ، و من ذلك زيارتنا لجامع (مولى الطايح) و هو أمير تركي ، و جامعه في غاية الفخامة و الجمال و قبره متصل به ، و بالقرب منه مدرسة الطلاب ، و أذكر أنني وجدت بالجامع حلقة لتلاوة القرآن و التدريب على أدائها و لفت نظري أنهم يقرأون في نفس واحد متصل دون وقف ، فوقفنا نستمع مستغربين أنا و الفقيه الحاج أحمد ابن تاويت ، و أردنا أن ننبههم إلى الخطأ في ذلك فلم يفرغوا من القراءة ، و كنا أثرنا هذه المسألة مع الشيخ الفاضل فاعترف بعدم لياقتها إلا أنه اعتذر بحاجة التعليم في التلقين كذلك كما نفعل نحن مع الأطفال فيما نسميه (بالتهجي) في الكتابات إلا أن هذا عندنا قاصر على الأطفال أما عندهم فعام ، و عند زيارتنا للمدرسة الصادقية للسؤال عن الشيخ ابن عاشور لم نجد و وجدنا أحد كتابه الذي أخبرنا بأنه في رخصة ، و أنه لن يحضر إلا بعد أيام ، و أبدينا له رغبتنا في زيارته فكلمه بالهاتف فرحب بنا ، و نزلنا إليه بسيارتنا مسترشدين بوصف الكاتب إلى أن وصلنا إلى قصره الفخم بحي المرسى مارين بحلق الوادي ، فاستقبلنا الشيخ الفاضل ببشاشته المعهودة و أدبه الجم و دخلنا إلى صالون كبير مزدان بستور و ثريات و لوحات فنية، و وجدنا به صحافيا مصريا و بعض الأساتذة و بعد التعارف تحدثنا مع الشيخ الفاضل حديثا أنسانا الأهل و الأولاد لحلاوة المنطق و دماثة الأخلاق و الإلقاء بشكل سليم سريع لا يستطيع الكاتب المتروى أحسن منه ، و بعد هنيهة خرج و عاد مصحوبا بوالده الشيخ الطاهر فشهدنا شيخا و قورا عليه مهابة العلم و السن تتلى في وجهه آيات الفضل و الجد ، و قد تبادلنا معه أحاديث كان منها حديث مطول عن مدونة الأحوال الشخصية و ما تم فيها من تغيير و اختيار مسائل خارجة عن مذهب مالك ، و كان منها مسألة الطلاق المجموع في كلمة واحدة ، و كيف اعتبر طلبة واحدة بآية ، فأشار الشيخ إلى اجتهاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه المعلوم في المسألة و أنه أمضاه على الناس ليتزجروا ، قال الشيخ (و ما زلت أذكر صوته و قد جهر به) : و مع ذلك لم يتزجروا . و كنت رأيت بالمكاتب بعض أجزاء مطبوعة بتونس من تفسير الشيخ فهممت بشرائها إلا أنني لم أفعل ، ولقد ندمت الساعة على ذلك ؛ لأنني كنت أستطيع أن أقدمها للشيخ ليناولنيها فاستأذنه في الرواية عنه مناولة ، و لكنني قلت و قد فاتني هذه المنقبة : ألا أستأذن الشيخ في الرواية العامة ، و إن كان من الصعب أن أكلف الشيخ الكتابة و حالته لا تسمح بها كما أن ظروف الزيارة و حضور الناس يحول دون ذلك ، و عند وداعه سلمت عليه و سألته فأنعم و فرحت بذلك لأنني بالرواية عنه مشافهة شاركت بعض شيوخه الآخذين عنه كالشيخ أحمد ابن الصديق ، و عندما ودعت الشيخ الفاضل بمدخل القصر سألنا عن منزلنا فأخبرنا و لم نعرف مقصوده . و بعد وصولنا إلى الفندق بمدينة حضر الشيخ الفاضل بسيارته الفخمة فعلمنا

سبب سؤاله و لقيناه و سعد معنا إلى الغرفة المتواضعة في فندق شعبي غير لائق و صنعنا له شايًا مغربيًا و حمل إلينا الشيخ تمورا طيبة و حلويات قدمها إلينا معذرا عن التقصير راغبا ملحا أن يكون مرورنا في العودة علينا أحسن ليتمكن من الإكرام اللازم ، يقول هذا بأسلوب تتخلله لطائف التعبير و يضمخه طيب الشمائل و الأخلاق رحمه الله و أكرمه ، و في مثل هذا الرجل يحسن إنشاد قول أبي العلاء :

جمال ذي الأرض كانوا في الحياة و هم بعد الممات جمال الكتب و السير

و في أثناء الحديث أشار علي الشيخ بزيارة السيد صاحب (أبي زمعة البلوي رضي الله عنه) بالقيروان، و ابن غانم و سحنون و ابن أبي زيد و القابسي و أبي عمران الفاسي ، و فعلا عند وصولنا إلى القيروان زرنا هذه المشاهد كلها بعد مسجد عقبة بن نافع الذي هو أعظم و أقدم الآثار الإسلامية بشمال أفريقية ، و قد طفنا بأبهاء المسجد و بلاطاته الناطقة بجلال القدم و التقوى و سعدت المنبر الذي هو من آثار بني الأغلب فيما يقال ، و نزلنا إلى قبر سحنون و هو في سبخة و وجدنا به ناسا يعملون على مرمرات لنسيج البز الذي اشتهرت به القيروان و على دربوز القبر ورقة كتب عليها هذا قبر فلان المتوفى سنة كذا، و وقفنا على فسقية بني الأغلب ، و هي كبيرة مستديرة لتجميع مياه المطر، و شاهدنا بقية تافهة من آثار مدينة رمادة المشهورة ، ثم عدنا إلى العاصمة ، و سعدنا إلى زاوية للشاذلية بمقبرة الزلاج و هي أقدم مقبرة بها ، و رأيت حرص الشيخ أحمد ابن تاويت على الوقوف على قبر الفقيه ابن عرفة و ابن عبد السلام التونسي و الأبي و قد دلّه عليهم مرشدنا المتطوع ويسمى: حُميس و الباني ، و وصلنا الزاوية و هي بأعلى المقبرة و دخلنا و هي متينة البناء و وجدنا بها آثار احتفال من بسط كثيرة و أثار و أواني طبخ كبيرة و أفادنا المرشد بأن الصوفية يحبون بها ليالي المواسم و كان أحدها قريبا ، و هذه الزاوية مبنية على مغارة تحت الأرض ضيقة جدا لا تسع أكثر من شخصين ، قيل بأنها متعبد الشيخ أبي الحسن الشاذلي الشيخ الغماري المغربي الشهير النسبة إلى قرية (شاذلة) بتونس ، و هو مغربي صميم و إنما أقام طويلا بالقربية المسماة ، و ما زلت أذكر أن بالمغارة صورة محراب منقور بالصخر ، و قد حضر الفقيه ابن تاويت خشوع كبير و جلس و دعا و تأسف كثيرا لعدم وضوئه فكان يصلي ثمة ركعات ، و عجبت لصنيعه هذا مع اشتهاره بالسلفية .

و في رحلة لاحقة لتونس زرت من أعلامها الشيخ الشاذلي النيفر رحمه الله (توفي مؤخرًا عام ١٤١٨) بمكتبته بالعاصمة ، و هي مكتبة ضخمة فتحها لعموم الباحثين بحفل رسمي ، و تضم كتبًا قيمة و مخطوطات نادرة ، و هي و مكتبة الشيخ الطاهر ابن عاشور يمثلان أنفوس و أكبر المكاتب الخاصة بتونس ، و تليهما مكتبة حسن حسني عبد الوهاب و قد نقلت إلى المكتبة

الوطنية بوصية منه ، وعلى ذكر هذا الرجل فإنني كنت حريصا على زيارته و سألت عن منزلته
 فعرفته و استأذنت عليه ، فاعتذر لي شاب -لعله من تلاميذه- عنه بأنه مريض لا يستطيع مقابلة
 أحد ، و أذكر أن مما دار بيني و بين الشيخ الشاذلي من حديث حرصه البالغ على اقتناء تاريخ
 تطوان ل محمد داود الذي طبع منه حتى الآن ثماني مجلدات و هو النصف من الأصل ، و كان
 الشيخ وقف على بعضه ، و أعجبه ، و حدثته عن كتاب شيخنا و شيخ الأستاذ داود (عمدة
 الرايين في تاريخ تطاوين) في عشرة أجزاء في خمسة مجلدات للشيخ أحمد بن محمد الرهوني
 التطواني ، فكان يتعجب من حديثي و لسان حاله ينشد^٣ :

كَيْفَ الْوَصُولُ إِلَى سَعَادٍ وَدَوْنَهَا قَلُّ الْجِبَالِ وَدَوْنُهَا حُتُوفٌ

و تواعدنا أن يكتبني في هذا الشأن لتدبير شأن الإرسال و التصوير ، و لكنه لم يفعل ، و لعله
 كان يجب لقائي بالمغرب لإنجاز العمل ، و لكن لم تتح له هذه الزيارة إلى أن توفي رحمه الله . و ما
 رأيت من يحاكيه في إثارة الحديث عن الكتب و المخطوطات إلا القليل كشيخنا عبد الحي الكتاني
 و أحمد ابن الصديق إلا أنه يفارقهم بضنائه بأعلاقه و نوادره فلا يسمح بتصوير و لا إعارة بينما
 الأولان سخيان بما عندهما ، و لله في خلقه شؤون ، و كان مما يصب في هذا الاتجاه من حديث
 الشيخ أنه أخبرني عن والده و غيره من علماء الزيتونة كيف كانوا يتتبعون حركة النشر للكتب
 بالمطابع الحجرية بفاس و يحرصون على شرائها و اقتنائها و يوصون بها و كيف كان الطلبة
 يتهافتون على آثار الشيخ المهدي الوزاني من شروحه و حواشيه و نوازله الفقهية الكبرى و
 الصغرى مع كتب النوازل و الفتاوى الكثيرة التي أخرجتها المطابع الحجرية بفاس .

و من العلماء و المدرسين الذين لقيتهم و أنست بهم الشيخ عز الدين سلام ، و هو
 خطيب و مدرس بأحد مساجد العاصمة و متميز بإتقانه علم الحساب و الفرائض عرفني به تلميذه
 الأثير الشاب الصالح العالم المقرئ المتقن الأستاذ فتحي العبيدي أحد أساتذة جامعة الزيتونة في
 علوم القراءات ، الذي عرفته هو الآخر بواسطة شيخه أخي الفاضل الباحث المعني الدكتور محمد
 أبو الأجنان التميمي القيرواني خريج جامع الزيتونة و الأستاذ بكلية الشريعة فيها ، و الذي يعمل
 حاليا بجامعة أم القرى بمكة المكرمة ، و كان هذا الرجل الفاضل زارني منذ أكثر من عشرين سنة
 بالمكتبة العامة بتطوان و أهداني من تحقيقاته فهرست المجاري و فهرست القلصادي ، ثم توطدت
 الصلة بيننا من يومئذ و لا أبالغ إذا قلت بأن رسائله إلي تناهز المائتين و كلها تدور على العلم و
 النشر و الكتب و المخطوطات ببارك الله في جهوده التي أثمرت الآن ما يجاوز الخمسين عملا بين
 تأليف و تحقيق .

^٣ و هذا البيت للإمام الشافعي رحمه الله .

ثم غادرنا تونس العاصمة و مررنا بمدينة صفاقص التي لم نقف بها طويلا و شاهدنا بها مساجد قديمة و أسواقا تونسية أصيلة بدكاكينها و سيما أهلها و ملابسهم و شاراتهم ، و وقفنا عند ضريح الإمام اللخمي صاحب التبصرة الشهيرة في الفقه المالكي التي هي من مصادر الشيخ خليل بن إسحاق الجندي في مختصره المشهور ، و أشار إليه في خطبته و أنه يعتمد اختياراته على تفصيل له في ذلك ، و معلوم أن اختياراته أثارت جدلا طويلا بين متأخري المالكية ، و من اللطائف قول بعضهم في انتقادها من أبيات :

لقد مزّقت قلبي بسهم^٤ جفونها كما مزّق اللخميّ مذهب مالك

و كان من أهداف الزيارة الاتصال بالشيخ محمد محفوظ توفي قريبا فلا تسل عن أسفي لفوت هذه الفرصة ، و ذلك لما امتاز به الشيخ رحمه الله من اطلاع و تحقيق و هو مؤلف "معجم المؤلفين التونسيين" ، و كنت اقتنيت منه نسخة و قرأتها و علقت على هوامشها ملاحظات كنت سأحاوره في شأنها لو شاء الله لقاءنا في الدنيا و نرجو أن يتحقق لقاءنا في دار كرامته بفضلته و منه ، كما كنت أود اطلاع الشيخ على وجود نسخة تامة من كتاب "الأربعين البلدانية" للإمام البكري الذي حققه الشيخ تحقيقا علميا و طبعته دار الغرب للناشر التونسي الحبيب اللمسي عن نسخة سقيمة بها بياضات ، و كنت عثرت على نسخة ثانية جيدة تامة من كتب المكتبة الزيدانية التي أضيفت للخزانة الملكية بالرباط .

ثم خرجنا من مدينة صفاقص إلى مدينة قابس التي توصف بأنها جنة الدنيا و دخلناها في يوم عابس ذي ريح عاصف و غبار كثير و مررنا على قبور جماعة من الصحابة فيما يقال لا أدري أسماءهم ، و لم ألق فيها أحدا من أهل العلم ، و غادرناها متجهين نحو الحدود الليبية فدخلناها خائفين من اكفهرار الجو و زجرة الرياح ، و شاهدنا عواصف رملية كنا نقف بسيارتنا بعيدين في انتظار مرورها سوداء في شكل عمود ضخّم متحرك ، و بعد ساعات عصيبة و صلنا إلى مدينة مصرطة و استرحنا ، و كنت أعلم أن بهذه المدينة مرقد الشيخ أحمد زروق الفاسي فسألت عنه فعرفت أنه خارج المدينة ، فخرجنا إليه فوجدنا مدرسة بها طلاب يحفظون القرآن و آخرون يتعاونون حفظه على الطريقة المعهودة عندنا بكتابته في ألواح خشبية اطلعت على بعضها ، و وقفت على ضريح الشيخ و معه آخر^٥ . و لم أجد ثمة عالما أسأله .

^٤ كذا أثبتها الشيخ ، و في نفع الطيب : سهام بالجمع .

^٥ لعله خادمه أحمد عبد الرحيم الذي بنى الزاوية بعد رحيل الشيخ زروق ، ثم استمرت تحت رعاية أهله و أسرته بعده لمدة ١٥٠ سنة . انظر كتاب أحمد زروق و الزروقية للدكتور علي فهمي خشيم . ١٧٢-١٧٣ .

ثم مررنا على مدينة نسيت اسمها (و لعله المرجة أو المرج) كان أصابها زلزال دمر كثيرا منها شاهدنا آثار التدمير بما نسأل الله العافية ، ثم زرنا مدينة اطرابلس و معرضها السنوي و كان لا بأس به و البلد حديث عهد بالاستقلال ، و لم يكن البترول ظهر بها . ثم زرنا مدينة بنغازي و هي لا تمتاز عن العاصمة إلا بمزيد من الفقر ؛ إلا أنني وقفت بما على قبر الشهيد عمر المختار رحمه الله ، و عليه بناء حديث فخم و فوق قبره رسمت بطلاء ذهبي قصيدة أحمد شوقي الشاعر المصري في رثائه و هي بديوانه^٦ ، و بينما أنا أتجول في شوارعها بعد أن تغدينا بسوق الظلام ، و هو سوق طويل مستقف بقبو، في مطعم شعبي ما زلت أذكر صاحبه شيخا يسمى : حمادة الطرابلسي أخبرنا أنهم يعانون من كساد قاتل ، وصلت إلى مكان أنكرت ما شاهدت فيه من نساء كثيرات جالسات على أبواب بيوتهن و هن متزينات مكتحلات متمصات محمرات الشفاه و الحدود ، و بعضهن يدخن السجاير والكيف ، ومنهن من كن ينظرن إلي بشوق فأسرعت الخطى إذ علمت أن المكان (بُرديل) للبعاء والبغايا ، نسأل الله العافية .

و بعد نحو يومين خرجنا فمررنا على عدد من القرى و المدن منها درنة و بما قبور بعض الصحابة كما رأيت مكتوبا عليها كعبد الله الزلام الأنصاري القاضي (كذا) و قيس بن زهير البلوي و غيرهم إلى نحو سبعين قبرا في بيت مستطيل و لم تذكر أسماءهم إلا هذين ، و هذه المدينة تقع في سفح الجبل الأخضر المشهور الذي كان من معاقل الجهاد و حصون عمر المختار و أصحابه الذين ساموا الطليان به و غيره سوء العذاب ، و قد صعدنا الجبل بعد خروجنا من البلدة فإذا هو أخضر دائما لنبات أشجار لا يسقط ورقها ، و زرنا بلد الزاوية البيضاء ، و بما ضريح الشيخ السنوسي الكبير جد الملك إدريس السنوسي و عليه قبة فخمة و بالمدينة معهد علمي ، و قد رأيت أساتذة و طلبة يلبسون الجباب المصرية كالأزهريين ، و أذكر أنني رأيت بمدخل المدينة مسجدا حديثا ذا منارة مصرية طويلة و وسطه قبة كتب على مدخله أنه ضريح رويغ بن ثابت الأنصاري الصحابي رضي الله عنه ، و قرب الضريح مقبرة لفت نظري فيها شواهد قبور بما أسماء البقالي بكثرة ، فلا أدري هل هؤلاء الموتى من البقاليين المغاربة ، و مما مررنا عليه مدينة أجدابية ، و هي صغيرة متواضعة ذكرت باسمها أبا إسحاق ابن الأجدابي العالم اللغوي الشهير صاحب كتيب "كفاية المتحفظ و نهاية المتلفظ" الذي قرأته درسا بالجامع الكبير بتطوان لأنه كان مقررا لطلبة القسم الابتدائي ، و لكنني لم أعرف بما أحدا ، و لا زرت بما عالما و لا ميتا ، و كل ما أذكر أنني صليت بما الجمعة بمسجد متواضع و خطب يومها خطيب أعمى لعله مصري ، كما

^٦ مطلعها : رَكَوْا رُفَاتَكَ فِي الرِّمَالِ لَوَاءَ
يَسْتَهْضُ الوَادِي صَبَاحَ مَسَاءَ
و فيها يقول : يَا أَيُّهَا الشَّعْبُ القَرِيبُ أَسَامِعْ
فَأصوِّغْ فِي عُمَرِ الشَّهِيدِ رِثَاءَ

مررت بقريّة سرت -هكذا بالسين المهملة- و هي قرية كبيرة نوعا، يقال بأن أولاد الشَّرْتِي^٧ التتوانيين ينحدرون منها كما سمعت منهم ، و وقفت بها على طلل واطى قيل لنا بأنه أصل منارة مسجد مغربي بني هناك أيام حكم المرابطين أو الموحدين ، ثم مررنا على مدينة طبرق ، و هي بليدة عالية طيبة الهواء . و مررنا على قرية سواكن و صلينا بمسجدها الذي علمنا بعد أنه لإباضية إلا أننا كنا صلينا وحدنا لطول انتظارنا للجماعة ، و قد علمت بعد ذلك أن هذه النحلة الباقية من الخوارج الذين كان المغرب من مراكزهم الأولى توجد هنا بليبيا بهذه القرية وغيرها ، وبتونس بجزيرة جربة ، و بالجزائر ببني مزاب . هذا بشمال إفريقيا و يوجدون بطنانزايا و معلوم أن لهم الآن دولة و قوة بسلطنة عمان و بلاد الخليج العربي الغنية بالنفط و غيره من المعادن ، و لهم الآن صحف و مجلات و دور نشر تطبع من تراثهم الكثير ، و هم مبتدعة معتزلة في العقائد يحطون على علي بن أبي طالب و أهل بيته و بعض الصحابة نسأل الله العافية ، ثم انحدرنا في طريق جبلي طويل انتهى بنا إلى قرية السلموم التي هي على الحدود بين ليبيا و مصر ، و قد تعبنا في النزول لسوء حالة الطرق في ليبيا ؛ لأنها ما زالت محفورة من أثر معارك الحرب العالمية الثانية التي دار كثير منها بها . و دخلنا التراب المصري مقترين من البحر الأبيض حتى وصلنا أول بلد به و هو مرسى مطروح، و هو مصيف جميل تغدينا به ، ثم واصلنا السير إلى الإسكندرية التي أقمنا بها أياما بفندق جميل مطل على ميدان نُصب بوسطه تمثال من البرونز لسعد زغلول يشير بيده ، و الإسكندرية بلد غني عن التعريف و يحتاج من يتعرف عليه إلى أيام عديدة ؛ إلا أنه ما لا يدرك كله لا يترك قله ، من ذلك زيارتنا لقصر التين و هو قصر عجيب ، و منه حمل الملك فاروق بن أحمد فؤاد الأرنؤوط آخر ملوك مصر ، معزولا منفيا . و قد تجولنا فيه ، و فيه مصعد كهربائي لشهود طبقاته ، و كان مازال على الحال التي تركها عليه الملك حتى يومية الشهر ما زالت كما هي و خزائن الملابس المختلفة حتى الأحذية و البرانيط و الطرابيش و العصي و أنابيب التدخين ، كل هذا محفوظ كما تركه صاحبه في خزائن زجاجية في غاية الإتقان و الصون و الحفظ ، و اللوحات معلقة بالجدران تكاد تنطق ، و منها لوحة رسمها للملك رسام أوربي رائعة ، لاحظ المرشد المصري طول وقوفنا عندها فقال (شَكَلُو حِلُو مِشْ كِذَا) . و في تجولي بشوارع الإسكندرية زرت مسجد أبي العباس المرسي وهو شامخ البناء ذو منارات مصرية الشكل ،

^٧ قال الرهوني في عمدة الراوين ٣/٣١٦ : (اسم عائلة قديمة نبيهة أندلسية ذات ثروة و أملاك داخلية و خارجية ... و لعله منسوب إلى "الشَّرْتِي" ، و هي في الأصل : النعل البالية ، لكون أحد أجدادهم كان يرقعها أو يلبسها أو نحو ذلك . أو أصله : الشرطي ، قلبت الطاء تاءً) . ثم عقب شيخنا أبو أويس فقال : لعل الصواب في هذه النسبة أنها لبلدة سرت ، بالسين المهملة ، بليبيا ، و لا زالت موجودة ، و بما أثر للموحدين من المغاربة ، فحرفت بالشين ، الشرقي ، و قد سمعت منهم من يؤيد هذه النسبة ، و الله أعلم .

ووجدت الضريح غاصا بالزائرين و الزائرات يتمسحون بالتابوت ، و يلصقون به بطونهم و ظهورهم و وجوههم و يزمزمون في شكل ينافي أدب الإسلام في الزيارة الشرعية ، و بالقرب منه ضريح البوصيري صاحب البردة و الهمزية ، و كلاهما من أصل مغربي ، و أذكر أنني رأيت قصيدته الميمية البردة مكتوبة بخط رائع بالصفرة بقبته ، و هناك بالقرب قبر يقال إنه لأبي الدرداء الصحابي و هذا غير صحيح ، و المتسولون و المعتوهون هناك بالعشرات يلحفون بالسؤال و هم في غاية الفقر و الخصاص ، و الأسواق غاصة و المدينة مزدحمة ، و هناك قلعة قايتباي على البحر لم أصل إليها ، و بعد أيام غادرناها في طريق جميل تحفه الحقول الخضراء من اليمين و الشمال بخلاف طريق الإسماعيلية و السويس ، فإنه طريق صحراوي قاحل . و مررنا في ذهابنا للقاهرة على جرجا و سيدي جابر و طنطا و منارة مسجد البدوي تظهر من بعيد و على رأسها مصباح يضيء ليلا و لم نقف بها و مساءً دخلنا القاهرة و قصدنا عنوان الأخ محمد مولاطو التطواني و هو مشوى متواضع قريب من مسجد الكيخيا . و قد قضينا في القاهرة أكثر من ١٥ يوما ، و صادف يوم دخولنا القاهرة مرور موكب جنازة كبيرة فوقفنا أنظر فسمعت رنة صوت لنادبة و عرفت وجوها لعدد من الممثلين المصريين ، فسألت فأخبرت أن الجنازة لمامون الشناوي الشاعر الذي كان من أبرز مذيعي إذاعة القاهرة و عرف بأشعار له رقيقة لحن و غني بها ، و كان من أهداف الرحلة كما قلت الاتصال بأهل العلم إلا أننا بعد مضي أيام على إقامتنا بالقاهرة علمنا أن المواصلات مقطوعة بين مصر و السعودية في البر و البحر فسقط في يدينا و أخذنا نبحث عن طريقة للسفر إلى جدة لإنجاز ما رحلنا لأجله و هو الحج ، فسافرنا إلى السويس فلم نجد باخرة و علمنا أنه لا يسمح لا بجرا و لا جوا و لا برا بالسفر إلى السعودية ، و إذاعة القاهرة جادة في حملتها على الملك سعود و الثورة المصرية في فجر عهدها .

و في أول جمعة لنا بمصر رأيت جمال عبد الناصر مارا لصلاة الجمعة بالأزهر مع ضيفه رئيس جمهورية الهند داکر حسين ، و الطرق مزدانة بالأعلام و غاصة بالناس ، و صليت الجمعة بالأزهر ، و زرت الكثير من مساجد القاهرة كمسجد الحسين ، و المؤيد ، و الحاكم ، و عمرو بن العاص ، و ابن طولون ، و مدرسة السلطان حسن ، و زاوية الرفاعي قبائلته ، و مسجد محمد علي بالقلعة و فيه ضريحه ، و زرت متاحف القاهرة كالمتحف الفرعوني و الفن الإسلامي و متحف القلعة ، و دار الكتب المصرية ، و صعدت برج القاهرة ، و زرت حديقة الحيوان ، و القناطر الخيرية ، و الحديث المفصل عن هذا كله يطول ، كما زرت ضريح الإمام الشافعي و الليث و القرافة و المقطم حيث ضريح عمر ابن الفارض ، و زرت ضريح شيخي أحمد بن الصديق ، و كان قريب العهد بالوفاة بعد هجرته إلى مصر فآرا من الاستقلاليين بالمغرب ، كما زرت منزل

شقيقه عبد الله الذي كان معتقلا بتهمة الجاسوسية ، و حكم عليه بالإعدام ، ثم خفف إلى المؤبد ، ثم سرح من السجن بشفاعة الملك الحسن الثاني لأنور السادات بعد وفاة جمال .

قلت : و في غمرة هذه الأحداث اشتغلنا بقضية السفر و الوقت ضاق فلم نتمكن من زيارة أحد ، فقد دللنا على ترجمان من أصل تركي له وكالة أسفار مهمة ليدير لنا أمر السفر ، فاتصلنا به و أخبرنا بأن هناك طائرة ستسافر قريبا إلى الظهران بالسعودية لنقل بعض العمال و الخبراء، فحجز لنا فيها و علم بذلك عدد من الحجاج الجزائريين ففعلوا مثلنا ، و تمت قضية السفر جوا ، و لله الحمد ، و كان لهذا الترجمان ولد و بنت كان يحضر إليهما يوميا يلقنهما دروسا في العربية والدين الشيخ أحمد الشرباصي الخطيب المشهور ، فلقيته في مبنى الوكالة ، و سلمت عليه ، و سألتني عن بعض العلماء المغاربة منهم البشير الابراهمي ، كما لقيت بمكتبة محمد علي صبيح الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد الشهير بتحقيقاته و جالسته قليلا فرأيت أنه يدخن بشراهة ، و سألتني أسئلة تدل على عدم إلمامه بالمغرب و أهله .

ثم سافرنا بعون الله إلى جدة فوصلناها ليلا ، و منها سافرنا في السيارات إلى المدينة المنورة حيث قضينا أياما تشرفنا خلالها بالسلام على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و صاحبيه ، و زيارة حرمة الشريف و الصلاة فيه في معظم الأوقات ، ثم زيارة البقيع و مسجد قباء ، و تجولنا ما شاء الله بأحياء المدينة و خرجنا لمشاهدة أحد و ميدان المعركة و الوقوف على قبور شهدائها و على رأسهم سيدهم حمزة رضي الله عنهم أجمعين . و كان نزولنا بدار قديمة قريبة من الحرم اكتريتها من صاحبها الذي ذكر أنه من أولاد بري المغربي الأصل ، و كانت تجاهها دار أخرى يملكها مغربي نزل المدينة قديما و جاور بها و تزوج ، و وجدناه طريح الفراش طاعنا في السن و له قرابة بالحاج العياشي الصُغَيْر كما ذكر ابنه الفقيه العدل السيد محمد ، و كان جو المدينة حارا لأننا كنا في شهر يونيه فكنا ندخل الدار للأكل و قضاء الحاجة أما النوم فكنا ننام بالمناخة ، و هي ساحة كبيرة يرباط بها الحمالون و المكارون بميرهم ، و بها مقاهي تقليدية و مراحض تحت الأرض ، فكنا ندخل بعد صلاة العشاء نسمر و ننام بعد أن نَصِفَ الشَّبْرِيَّات في شكل مربع و لا ندع لها مدخلا فننام ، و أذكر أنني كنت أدخل زعبولتي الجلدية و هي صغيرة في سراويلي عند النوم احتياطا .

و بعد أيام سمعت الفقيه ابن تاويت و قد جاء متأخرا يذكر أنه حضر حفلا كبيرا لإهداء الدراسة في الجامعة الإسلامية و كانت في عامها الأول أو الثاني و رئيسها الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ و نائبه الشيخ عبد العزيز ابن باز ، و ذكر أنه سمع تدخل الشيخ ناصر الألباني ملاحظا على بعض الطلبة المتفوقين الذين ألقوا خطبا بالمناسبة ، فاسترعى حديثه انتباهي ، ذلك لأنني

كنت سمعت بالمغرب ثناء حسنا من شيخي أبي الفيض أحمد ابن الصديق علي الألباني قائلا بأنه خير من يشتغل بعلوم الحديث الآن و يتقنها ، و هي شهادة قلما يسخو بمثلها الشيخ ، ثم كان الفقيه اعجولو التطواني ، و كان جاري في السكن ، يطلعني على بعض المجالات الشرقية التي كان يطلعه عليها تلميذه محمد الجُحرة صاحب مجلة "الأنيس" ، و كانت تصله بحكم التبادل الثقافي ، و منها مجلة "التمدن الإسلامي" التي كانت تصدر بدمشق لصاحبها أحمد مظهر العظمة ، فكانت أجد فيها بين الحين و الحين مقالات و فتاوى حديثة للشيخ الألباني الذي قدمه للقراء صاحب المجلة في مناسبة بأنه فتي أرناؤطي هاجر مع والديه و أهله إلى دمشق فاستوطنوها ، و كان هذا الفتى عصاميا فاعتمد على نفسه على فتاء سنه (٩ سنوات) يعمل في البناء و النجارة و الكهرباء ، ثم تعاطى صناعة إصلاح الساعات و فتح دكانا لذلك ما زال إلى الآن يعمل فيه ولده عبد اللطيف . و شدا شيئا من النحو و الفقه ، ثم حبب إليه الحديث فكان يستعير من بعض الكتبيين كتبه و يقرأها بنهم ، ثم أخذ يتردد على المكتبة الظاهرية و بمضي الزمن اكتسب ملكة في هذا العلم لفتت أنظار المسؤولين فوضعوا ثقتهم فيه و خصصوا له بيتا ، و أذنوا له في البحث و تناول المخطوطات و خدمتها بالترقيم و الإصلاح و التعريف و البحث في الخروم لإتمام البتر ، فتم على يده من ذلك ما شاء الله مما عم نفعه و عظم وقعه، و هو الذي وضع فهرس مخطوطات الحديث و ما إليه .

قلت و الحديث ذو شجون : لما سمعت الفقيه ابن تاويت يذكر هذا تاقت نفسي لرؤية الشيخ و الاجتماع به فأخبرني الفقيه أنه يصلي بالحرم باستمرار ، فاتفقت معه على إرشادي إليه في صلاة العشاء ، و هكذا تم اللقاء بحمد الله على باب عبد المجيد ، فرأيت كهلا طويلا أصهب كأنه من رجال الإنجليز فسلمت عليه و رحب بي و استدعاني فخرجنا و امتطينا سيارته و قد امتلأت بأطفاله . وأضافنا بيته على الماء و البطيخ الأحمر (الحَبَّحَب) معتذرا بسفر زوجته . و قد قضيت معه ساعات مباركة في المذاكرة ، و الفقيه ابن تاويت و شقيق الشيخ و اسمه منير ، نائمان يُهَوَّمان جالسين . وناولني الشيخ في أثناء المذاكرة مخطوطة فهرسه لكتب حديث الظاهرية الذي طبع منتخبه بعد ذلك بدمشق ، و رسالته في الصلاة ، و أخرى في صلاة التراويح ، و كان قال لي بأنه لا رواية له ، و أنه يعتبر ذلك شيئا لا طائل تحته ، و أن الشيخ راغب الطباخ الحلبي أجازه بدون طلب ، فأشرت له بالإذن بالمناولة التي تمت بيننا - و هي من أنواع الرواية و التحمل - فوافق جزاه الله خيرا .

و بعد نحو أسبوع أو عشرة أيام غادرنا المدينة و أحرمتنا من ذي الحليفة قاصدين مكة المكرمة، و كان إحرامي بالتمتع ، و أبي الشيخ ابن تاويت إلا الأفراد رغم محاورتي له في لزوم التمتع إلا لضرورة قصوى فلم ينصت .

و نزلنا بمكة بمحلة الشامية عند المطوف عبد المعطي مرداد ، و هو من عائلة مكية منها علماء و وجهاء ، و كان هو نفسه قاضيا هناك . و لم يكن يومئذ بالحرمين آلات تكييف و لا مراوح كهربائية كافية و لا ثلاجات كثيرة ، و المياه طبيعية دافئة تصل إلى البيوت على يد عمال يمينين و غيرهم ، يأتي أحدهم حاملا صطلين كبيرين على كتفيه بخشبة معترضة يسعى بها سعيًا لا يتأوه و لا يشكو ، و تباع أحيانا قطع ثلج ليست بذاك .

و بالجملة فمن قارن حال الحرمين يومئذ بما آلت اليوم بعد نيف و ثلاثين سنة عجب من التطور السريع الذي مرت به ، فأصبحت اليوم في فنادقها و عماراتها الشاهقة و أسواقها و شوارعها و مظاهر العمران الآخذة في الارتفاع و الاتساع من أحدث البلاد و أرقاها في هذه الماديات ، و أشفق مما تستتبعه هذه من مخاطر التقليد و البذخ و التفرنج و الاستغراب ، و قد بدأت بعض هذه الآثار المدمرة للدين و الأخلاق و الروح نسأل الله السلامة .

و من الجدير بالذكر أننا عندما دخلنا مكة وجدنا أعمال البناء قائمة لتوسعة الحرم التوسعة ما قبل الأخيرة ، و هي أكبر و أوسع توسعة عرفها الحرم الشريف ، و كانت على أيام الملك سعود ابن عبد العزيز الذي استقر في عهده إنتاج البترول بعد اكتشاف حقوله و آباره المتعددة المتدفقة ، مما دفع بالبلاد بعد ذلك مع سائر دول الخليج العربي التي كانت أفقر دول الأرض ، إلى أرقى درجات الغنا و الترف لو عرف أهلها كيف يستغلون هذا الفيء العام لصالح الإسلام و المسلمين ...

و مثله ما تم هذه السنوات ١٤-١٥-١٦-١٧-١٨-١٩ من توسعة الملك فهد للحرمين فقد حدثني رجل رأي أصعد النظر و أصوبه في القباب العالية و السواري الضخمة و البوابات و الأقواس والقواعد و النوافذ الخ بأن الأسطوانية الرخامية الواحدة تكلف اثني عشر ألف دولار ، و قال الرجل بعدها : "وفي ذلك فليتنافس المتنافسون" ، فذهبت لحالي و لم أقل شيئا جهلي بالمصير .

و قد مكثنا بمكة نحو عشرة أيام زرنا خلالها مساجد و أسواقا و مكاتبا ، و بمكتبة الحرم المكي لقيت رجلا ذا سميت جميل و لحية مهابة فسألته عن شيء نسيته فأخبرني ، و بعد مدة علمت أنه الشيخ عبد الرحمن العلمي اليمني ، و هو عالم مشهور بتحقيقه و كتبه ، و عدت إليه فلم أجده ، فندمت على فوات الفرصة .

و مرت أعمال الحج على أحسن ما يرام و رأيت كثيرا من العلماء يملون الدروس بمختلف اللغات على كراسيهم في الحرمين و منهم من الهند و مصر و الشام ، و لكنني لم أستطع التعرف عليهم لضيق الوقت و زحمة الأشغال ، و مما يستحق التدوين أننا و قد أمينا الوقوف بعرفات في أحسن حال، و أذكر أن الطيب بنونة - و لعله كان يومئذ سفيرا للمغرب في إيران - حج و زارنا في خيمتنا بعرفات و أخذ لنا صورة جماعية ، و صورة للفقير ابن تاويت و هو نائم في لباس إحرامه .

و بتنا بمزدلفة و في الإسفار دفعنا و التقطنا الجمرات ، و رمينا جمرة العقبة ، و نزلنا دارا قديمة فلاحظت أن الفقيه ابن تاويت يحتفظ بالجمرات و هي حصيات غليظة نوعا ، فراجعتهم و أريته ما عندي منها و ما سألتقطه مما يعدو حصا الخذف كقول الباقلان ؛ كما يقول الفقهاء ، فقال لي : هذا حصا اللعب .

و في أيام التشريق و بعد الحلق و الذبح و طواف الإفاضة كنا نرمي الجمرات فجاء السيد عبد الكريم أشريقي و عبد الخالق السكيريج و كلاهما من تطوان بلدنا يسألان عن النيابة : الأول عن أمه ، و الثاني عن عمته ، و هما مريضتان في رمي الجمار ، فأفتاهما الفقيه بجواز النيابة عنهما إلا أنه لا بد من فدية نسك ؛ أي : الذبح ، فأجابا بأنه لا يمكنهما ذلك لغلاء المشية ، فقلت لهما : نوبا عن المرأتين المريضتين و لا شيء عليكم ، فغضب الفقيه و أخرج من حقيبتيه ملازم من شرح الدردير لمختصر خليل و كتاب بداية المجتهد ، و أخذ يقرأ و هو يقول لي : كيف تقول ما لا علم لك به ، و كان المسؤولون بالحرم المكي يوزعون بعض الكتيبات على الحجاج و منها أحكام الحج و العمرة لعبد العزيز ابن باز ، و لم أكن قرأته فتذكرته و أخرجته من قرابي ، و سرعان ما وقفت فيه على المقصود، و هو : جواز النيابة في الرمي عن العاجز دون أن يلزمه شيء لقوله تعالى^٨ : "فاتقوا الله ما استطعتم" .

و مثل هذا كان حصل لي مع الفقيه و نحن بمكة عندما ناظرته فيما فعل من إحرامه بالإفراد مع ثبوت الأحاديث الصحيحة الصريحة في أمره صلى الله عليه و سلم من أحرم بالحج وحده أن يفسخه و يجعله عمرة ، و سؤال سراقه له عليه السلام على الملاء : هل هذا دائما أو في تلك المرة فقط ؟ فقال ﷺ : بل للأبد ، بل للأبد الأبد ، و شبك بين أصابعه ، و قال : دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة^٩ ، فقال الفقيه : إنه ﷺ قال : لو استقبلت من أمري ما استدبرت

^٨ التغابن : ١٦ .

^٩ رواه ابن ماجه في سننه رقم : ٢٩٨٠ .

ما سُقت الهدى ولجعلتها عمرة^{١٠} ، فعجبت منه كيف يرد هذا بهذا مع أنه يؤيده ، ثم ذكر فعل الشيخين أبي بكر و عمر ، و ذكر نصاب ابن رشد ، فكان الجواب أن لا اجتهاد مع الرسول ﷺ ، و الخليفان خالفهما علي بن أبي طالب و ابن عباس و غيرهما ، أما ابن رشد فليس من أهل الحديث ، فغضب الفقيه و احتد و التفت إلي يقول بلهجة شديدة : و هل أنت مثل ابن رشد ؟ فهدأته و خفت من ثورته ، و السيد محمد السداتي يثيره بضحكه و يقول له : الحق مع (بوخبزة) .

و بالجملة فإننا كنا نسمع و نحن بتطوان أن الفقيه ابن تاويت ، و هو النجل الأكبر لشيخنا الذي حفظنا عليه القرآن بكتاب الاترنكات : الفقيه محمد بن عمر ابن تاويت الودراسي رحمه الله ، لا يقلد تقليدا أعمى ، و لذلك تشجع و أفتى بجرمة الصلاة في المقابر و زوايا تطوان المدفونة ، فقامت قيامة فقهاء تطوان ، و على رأسهم شيخ الجماعة و شيخه الفقيه الزواق ، و رد عليه في جريدة النهار ، فأخذ الفقيه الجريدة و ذهب إلى جامع السوق الفوقي حيث يصلي الفقيه الزواق إماما و جلس على الكرسي و أخذ يقرأ الجريدة و يرد على ما جاء فيها ، و الفقيه يسمع خلف الاسطوانة المقابلة للمحراب ، و كتب بعد ذلك رسالة في بضع صفحات سماها "إخراج الخبايا في تحريم البناء على القبور و الصلاة بالزوايا" .

أقول : كنت أظن أن الفقيه ابن تاويت — و قد وقف هذا الموقف و أعلن عن رأيه المخالف لما جرى به العمل عملا بالأحاديث الواردة في الموضوع — أنه ينتهج هذا المنهج السلفي القويم ، فإذا به لا يكاد يخرج عن المشهور في المذهب إلا في هذه المسألة فقط ، و قد ناظرته في مسائل عدة فتبين لي ما قلته ، و لله في خلقه شؤون .

و في أثناء تلك الأيام زرنا مدينة جدة للاجتماع بعين أعيانها الشيخ محمد نصيف فاجتمعنا بداره الكبرى فرحب بنا و أكرمنا و أعطانا مما كان يطبع أو يساهم في طبعه من الكتب السلفية ، و أذكر أنه أعطانا : الفوائد المجموعة للشوكاني ، و مجموع السنة في جزئين ، و هو مجموع رسائل و مقالات في الرد على الروافض ، و سألنا الشيخ عن بعض علماء المغرب ، كما سألنا عن كيفية صنع الكسكس فأخبره الحاج أحمد اطوي — و كان معنا — بذلك . قال الشيخ : إنه يعجبه كثيرا و لا يجد هناك من يتقن صنعه ، و رجا منا أن نبعث له أدوات الصنع ففعلنا بعد الرجوع ، و وقفنا بعد خروجنا من عنده على القبر الطويل المنسوب لأمنا حواء و كان عليه بناء كبير و قبه عجيبة فهدمت ، كما إني سألت الشيخ عن مسجد رأيت في أحد شوارع جدة و على بابه كتب الزاوية القنفدية ، فدخلته فلم أر فيه شيئا مما يوجد عادة في الزوايا ، قال الشيخ : إن ذلك المسجد كان

^{١٠} رواه البخاري ١٥٦٨ و مسلم ١٢١١ .

في الأصل زاوية لطريقة صوفية ، و لكنه بعد القضاء على الطرق و الزوايا و تحويلها إلى مساجد بقيت بعض الكتابات التاريخية كتلك ، و كان الواجب إزالتها .

و بعد أيام من إنهاء المناسك عزمنا على الرجوع ، فتذاكرنا الوسيلة : هل البر أو البحر أو الجو ؟ فانقسمنا إلى فريقين ، ذلك أن الفقيه و مصطفى الشاوي و اطوي فضلوا أن يذهبوا إلى الشام براً و رأوا شاحنات واقفة بساحة في انتظار أصحابها للرجوع بهم إلى الشام عن الطريق الصحراوي ، فكلوا أصحابها فوافقوا ، و اتفق أن علم بعض ضباط الشرطة بذلك فحذروهم من السفر في هذه الشاحنات لخطورة الطريق و هبوب العواصف الرملية علاوة على سوء أحوالها و ركابها ، و قد شاهدنا ذلك و راجعنا الإخوان فأصروا . ثم حدث ما أوجب الإقلاع عن هذا كله و ذلك أننا في رجوعنا إلى مدينة الحجاج ركبنا حافلة صغيرة من تلك الحافلات الحرة التي يقدم بها أصحابها من مختلف أنحاء المملكة للارتقاء بنقل الحجاج في جدة . و كان الوقت ليلاً بعد العشاء ، و نزلنا من الحافلة و ذهب ، و عندما وصلنا إلى البيت الذي كنا فيه افتقد الحاج السداتي حقيته اليدوية ، و كان يحمل فيها جوازات السفر لجميع أفراد الجماعة التسعة علاوة على أنواع العملة الصعبة له ولغيره وبعض الهدايا الذهبية ، فعلمنا أنها بقيت في الحافلة الذهبية و الوقت ليل و لم نعرف رقم الحافلة و لا سائقها و لا اتجاهها ، و سقط في يدنا ، و قامت قيامة السداتي ، و خرج بعض الجماعة للبحث و السؤال ، و ترددوا مرارا على إدارات الشرطة دون جدوى ، و كلفوني التردد على مستودع الأمانات بين الفينة و الأخرى عسى أن يظهر أثر للضالة ، و بتنا شر ليلة .

و في الصباح استأنفنا العمل بالبحث و السؤال إلى أن يئسنا ، و اتفقنا على الذهاب إلى سفارة المغرب بمجة ، و كان السفير يومئذ الفقيه غازي المكناسي الاستقلالي ، و كاتبه الأستاذ الناصري ، لاستصدار أوراق السفر فيمكننا الرجوع بها إلى بلدنا ، و لم نفكر ساعته في سيارتنا الباقية في القاهرة ، و لا في شيء إلا السفر على نفقة الدولة على أن نسدد المصاريف في وطننا ، و فعلا ذهبنا إلى السفارة ، و هناك حدثت الكرامة ، فعند استقبالنا للسيد الناصري بادرنا بقوله : أين كنتم يا إخوان ؟ لقد بحثنا عنكم كثيرا لأن صاحب حافلة خاصة جاءنا بحقيبة قال : إنه وجدها بحافلتك ، و لما فتحها وجد بها جوازات سفر و أوراقا مغاربة ، فجاء بها إلينا و دفعها لنا بوصول أمانة أحصى فيه كل ما كان بالحقيبة من مال و أوراق و هدايا ، و أخذ نسخة الوصل بعدما أدلى بعنوانه الكامل لاستدعائه إذا ضاع شيء ، فعجبنا لأمانته و حرصه على رد الحق لأهله مع أن الواقع يساعده على التكر و الهرب و الجحود و لا أحد يعرفه ، و هذا بلا شك من أثر الحكم الإسلامي و إقامة الحدود الشرعية .

و في اليوم التالي وجدنا باخرة صغيرة دائماركية راسية في الميناء تجمع الناس للسفر إلى العقبة بالأردن ، فاتفقنا على السفر بها لرخص ثمنها و وعد المكلفين بها -و هم نصارى- أن عندهم طعاما و شرابا فلا نحتاج إلى شراء شيء ، و ركبناها و أقلعت باسم الله مجراها و مرساها ، و ما هي إلا ساعات -و قد وجدنا الباخرة مكتظة بالحجاج من الأردن و سورية- حتى تغير الجو و أخذ البحر في الاضطراب و كان هذا من عجيب صنع الله ، فإنه لم يكن عند القوم أكل و لا شرب إلا زجاجات معدودة من الكوكا كولا ، و لكننا لم نفكر في الطعام بعد تزايد اضطراب البحر و إصابة الإخوان كلهم بالدوخة ؛ إلا الفقيه ابن تاويت و كاتب الحروف فقد بقينا محتفظين بوعينا ، و مرت علينا ثلاثة أيام بلياليها لم نذق فيها راحة و لا نوما و لا طعاما .

و صعدت مرة إلى سطح الباخرة مارا على الحجاج فلم أر إلا طريحا ينن و آخر يقيء ما في بطنه ، و آخر فاقد الوعي لا يشعر بما يجري . و شاهدت من عظيم قدرة الله ما قف له شعري و خفت من اكتساح الأمواج العاتية لي و الباخرة كقشرة صغيرة تتقاذفها الأمواج ، و أيقنت بالخطر، و لجأت إلى الله داعيا ضارعا . و في صباح اليوم الثالث أخذ البحر يهدأ ، و الجو يصحو و يروق ، و بعد ساعات أخذت الجبال تظهر من بُعد ، ثم تبيَّن البر .

و بعد منتصف النهار وصلنا بحمد الله ميناء العقبة ، و امتطينا حافلة عمومية قديمة تقلنا إلى عمان ، فوصلناها مساء و أكلنا و استرحنا و قضينا بها يومين أو ثلاثة ، و صلينا الجمعة بالمسجد الحسيني ، و رأيت الملك حسين عاهل الأردن جاء المسجد بسيارة واحدة فتزل و معه عسكري ودخل المسجد و تقدم إلى الصف الأول قرب المنبر ، و لم يقم له أحد ، و لم تحدث جلبة ، و بعد الصلاة خرج و ركب سيارته و ذهب ، و كان إمام المسجد رجلا كبير السن شجي الصوت طيب النغمة بكتاب الله .

و قد كتب لي زيارة عمان بعد ذلك مرتين فرأيت الفرق العظيم في تغير الأحوال و تطور العمران ، فقد كانت البلدة يومئذ متواضعة و مبانيها صغيرة و شوارعها ضيقة ، و مساحة البلد أضيق بكثير مما هي عليه الآن ، و خرجنا منها إلى دمشق الفيحاء التي قضينا فيها أكثر من أسبوع زرنا فيها معالمها و أسواقها و منتزهاتها ، و نزلنا فندقا قريبا من ساحة المرجة ، و غير بعيد عنه تكية السلطان سليم العثماني ، و هي مسجد جميل محاط بأشجار و أزهار و ورود و صحن كبير بوسط صهريج و نافورة و قرب المسجد شبه مدرسة بما بيوت متراصة، لعلها كانت معدة لسكنى الصوفية ، و هذا ما يفهم من لفظ (تكية) التركية التي هي بمعنى الزاوية ، و وجدناها اليوم محتلة من الجنود ، و التكية تطل على نهر (بردي) الذي هو نهر صغير ، و لم أكن أعرف اسمه ، و لما سألت عنه تذكرت قول شوقي في رثاء دمشق حينما ضربها الفرنسيون بالمدافع :

سَلَامٌ مِنْ صَبَا بَرَدَى أَرَقُّ وَدَمَعٌ لَا يُكْفَكُفُ يَا دِمَشْقُ

و تجولت كثيرا بشوارع دمشق و دخلت المسجد الأموي و زرت المدرسة الظاهرية ، و دخلت قبة الملك الظاهر المشحونة بالمخطوطات ، و وسط القبة قبران محاطان بدواليب خشبية زجاجية عرضت فيها نواذر المخطوطات التي هي بخطوط مؤلفيها و لا سيما منهم أهل دمشق و ما حولها ، فرأيت فيها خطوط ابن تيمية و ابن القيم و الذهبي و ابن كثير و ابن عساكر و غيرهم كثير ، و أصبت في تلك الأيام بمغص حاد ذهب بسببه إلى حمام الملك الظاهر و هو بالقرب من مدرسته ، وهو حمام عجيب ، ثم رأيت هناك مشهدا للسيدة رقية بنت الحسين بن علي رضي الله عنهما و عليه دربوز من فضة ، و الشيعة يترددون عليه و على قبور السيدة زينب و غيرها ، و مشهد هذه أفخم ، و يقيمون المناحات عليهم ، و زرت خلف المسجد الأموي ضريح صلاح الدين الأيوبي في الكلاسة و معه قبر آخر ، كما زرت البيمارستان النوري و مدرسة نور الدين الشهيد و غيرها من المدارس والمشاهد مما يطول ذكره و وصفه ، و سعدت حي الصالحية و زرت بها قبر ابن العربي الحاتمي و معه قبر الأمير عبد القادر محيي الدين الذي نقل بعد ذلك إلى الجزائر بعد استقلالها .

و سألت عن الشيخ محمد بهجة البيطار فدللت على بيته بحي المهاجرين فذهبت إليه و استقبلني بتواضع جم و جالسي أكثر من ساعة و استفدت منه فوائد ، و هو يومئذ أشهر علماء دمشق ، و أخبرني أنه مشتغل بتحقيق كتاب جده^{١١} : "حلية البشر في تراجم أعيان القرن الثالث عشر" الذي طبع بعد ذلك ، و أذكر أنه سأني أول ما لقيته فأخبرته بأني مغربي من مدينة تطوان قائلا : أظن الشيخ سمع باسم المدينة؟! فقال : نعم ، كيف لا أعرفها ، و هي تذكر في أناشيدنا الوطنية ، و قرأ :

بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان و من نجد إلى يمن إلى مصر فتطوان

كما كنت أجالس شيخا يؤم بمسجد درويش باشا القريب من فندق بني أمية حيث نزلنا ، رأيت به بيت قبالة باب المسجد الذي بالصحن فقصدته و سلمت عليه ، فرد و رحب ، و وجدت عنده كتبا و يتردد عليه بعض الطلبة و الفقراء الصوفية لشرب الشاي و المذاكرة ، و ربما ترنموا بأشعار الصوفية بنغمة أهل الشام التي سمعتها منهم فأعجبني سماعها ، و وجدت الشيخ مرة يلقي درسا داخل القبة في الفقه ، و لعله حنفي المذهب ، و اسم هذا الشيخ عبد الوكيل الدروي ، و أعطاني رسالة طبعها على نفقته لشيخ يسمى : عبد الله الحبشي الهرري فر من بلده و نزل دمشق ، و كان متصوفا متعصبا، أردت الاجتماع به فأخبرني الدروي أنه مريض بالمستشفى ببيروت ، و

^{١١} هو العلامة الأديب عبد الرزاق بن حسن البيطار (ت ١٣٣٥/١٩١٣) .

وجدت له صيتا هناك ؛ لأنه يرد دائما على الألباني ، و قد رد عليه هذا مع آخرين يتبادلون الردود في المساجد ويؤلفون رسائل في هذا بدمشق و حلب و حماة و غيرها ، و فرق كبير بينهم و بين عدوهم الألباني الذي يفهمهم بردوده العلمية و قوة حججه ، و قد أمرَ أمرُ الشيخ الحبشي بعد ذلك فأصبح زعيم نخلة الأحباش الذين تجاوزوا الآلاف ببيروت و أوربا ، و لهم أناشيد و مساجد و مراكز و دعاة يؤلفون لهم الكتب في الرد على أعدائهم و على رأسهم الوهابية السعوديون ، و الحبشي أخطرهم في هذا الباب لجهله العظيم و جرأته على الله ، و قد ألف في كشف فضائحهم و أعمالهم عبد الرحمن دمشقية مجلدا ضخما رأيتَه .

و مررت ليلة على مسجد يسمى : يَلْبَعًا الكبير ، و في جانب من صحنه الواسع تقف شاحنات و سيارات ، و وجدت شيخا يلقي درسا فاستمعت إليه ، و هو بهي الطلعة ذو لحية كبيرة سوداء و لهجة شامية حلوة ، و قد ألقى درسا و أجاب عقبه على أسئلة كثيرة قدمت إليه مكتوبة في أوراق وضعت على منضدة مع كوب ماء ، و عنه أخذت هذا التقليد و نقلته إلى مسجد بتطوان حيث ألقى دروسي في التفسير و الحديث ، و شاعت عني هذه العادة ؛ أعني : تقديم الأسئلة مكتوبة، و الجواب عنها بعد الفراغ من الدرس ، و قد سألت عن هذا الشيخ فقيل لي : بأنه الشيخ أحمد كُفتارو ، الذي أصبح بعد ذلك مفتيا لجمهورية سورية ، و رأيتَه بالمغرب قد حضر مناسبات ، و لم أجمع به و إنما رأيتَه في التلفاز ، و مما يستحق الذكر أن بالفندق الذي نزلته كان يعمل رجل كهل في التنظيف و كان متوددا يبادر بالسلام و السؤال ، و لاحظت أن بوجهه خموشا ، فسألته ، فقال : إنه من أثر اعتداء المشايخ الذين يراودونه عن نفسه ، و يعني بهم : مشايخ الشيعة الروافض ، و قد رأيتهم هناك مرارا بعمائمهم السود و جباهم السوداء الواسعة ، و أخبرني العامل — و لم يكن ذا جمال و فتاء يشتهي من اللوطية— : أن هذه عادتهم و أنهم يستحلون اللواط بأهل السنة!؟ فعجبت لهذا الانحراف المخزي .

و قد زرت فيما زرت مقبرة الباب الصغير و على بابها يرقد الإمام ابن القيم رحمه الله في بيت عار ، ألصقت فوقه رخامة باسمه ، و قربه قبر الصحابي أوس بن أوس الأنصاري ، و بالمقبرة كثير من القباب لعدد من الصحابة و أمهات المومنين ، الله أعلم بصحة ذلك ، و بكلية الطب و قفت على قبر الإمام ابن تيمية و معه الحافظ ابن كثير تلميذه في روضة مزهرة ، و كان هذا المكان في القديم مقبرة فدرست المقبرة و بني فوقها .

و من تلك المباني الجامعة و بما مسجد صغير يصعد إليه بدرج ، و هو المسجد الذي ألف الألباني في جوابه عن أسئلة لجنته رسالته : الأجوبة النافعة عن أسئلة لجنة مسجد الجامعة .

و بعد أيام ذهبنا إلى بيروت و وقفنا على معالمها و أسواقها ، و نزلنا بفندق قريب من ساحة الشهداء و بأحد ميادينها رأينا تمثالا لرياض الصلح ، و هو ولد لمياء التي تزوجها بعد ذلك الأمير عبد الله أخ الملك الحسن الثاني ، و صلينا بالمسجد العمري و هو أقدم المساجد ببيروت فيما قيل ، و زرت قبر الإمام الأوزاعي و هو في بيت متواضع قريب من البحر ، و سألنا عن المواصلات فعلمنا بمرور باخرة تركية فخمة منها إلى برشلونة بتاريخ كذا ، فعزمنا على السفر ، و كلفنا أحدا و هو السداتي بالسفر مع أحمد الفاسي - و هو سائق سيارتنا التي تركناها بالقاهرة ، و كان حجه على نفقتنا - إلى القاهرة لإخراج السيارة و القدوم بها إلى بيروت للعودة بها من طريق أوروبا ، و كان هذا السائق أسر في نفسه سوءاً بسبب ما سمع و نحن بعرفات عما جرى ببلدية تطوان من تغيير فخاف على وظيفته في السياقة و هو حديث العهد ، و تخنى لو يجد السبيل إلى الرجوع إلى المغرب في أقرب وقت ، و كان يعلم أننا قررنا العودة من طريق أوروبا و هذا يطول ، فأضمر في نفسه أن يكيدها بتمزيق أوراق السيارة أو رميها أو حرقها ، و كذلك فعل ، فأبرق إلينا و نحن ببيروت بما وقع فلم نجد بدا من إلغاء السفر ، و أبرقنا إليهما أن ينتظرنا بميناء الإسكندرية يوم كذا على الساعة كذا لشحن السيارة و قد حجزنا لهما و للسيارة ، و ركبنا الباخرة التركية و عند وصولنا إلى ميناء الإسكندرية صعد أحد النصابين المصريين و ادعى أنه وكيل الوكالة و طلب تذكرة السيارة فدفعت إليه و اختفى ، فعلمنا أنه لص ، أما السيارة فقد زعم رجال الجمارك أنها تسجل باسم فؤاد بوهلال بينما عندنا في الأوراق التي منحها لنا سفارتنا بالقاهرة أن صاحبها يسمى : الطيب بوهلال ، و أطلعوا الإخوان على ذلك ، فقلنا لهم بأن الخطأ جاء من رجال الجمارك بالسلوم ، فهم الذين أخطأوا ، و أخيراً امتنعوا من تسليم السيارة و كانت مؤامرة خسيصة و نصب و احتيال ، و قد أذنت الباخرة بالإقلاع فلم يسعنا إلا السفر تاركين وراءنا سيارة (فاركونيطة) من نوع فُلسفاكن الألمانية ، اشتريناها شركة من طنجة ، فذهبت ضحية التآمر و الطيش و الكيد من السائق الشاب الوسيم الذي توسمنا فيه الخير و قبلنا أن يحج على نفقتنا فسعى في ضياعنا ، و منا فقراء صالحون مثل: الحاج أحمد أطوي ، الذي ما فتئ يدعو على من فعل هذا ، فكان من قدر الله و عدله أن السائق الفاسي عزل من وظيفته و سافر للعمل بأوروبا و لم يمر عليه وقت طويل حتى بلغنا أنه أصيب ببصره ، و لم نره منذ ذلك الوقت إلى الآن ، و لا ندري ما فعل الله به .

و من عجيب أمر هذه السيارة أنني رأيت عنها رؤيا عجيبة و نحن بالسعودية و القوم يشترون البضائع و يستكثرون و قد نبهتهم مرارا بأن هذه الأثقال لا يمكن أن تحملها سيارة واحدة لأن حمولتها القانونية محدودة فلم يكن القوم يبالون ، فرأيت و أنا بمكة أو بجدة أننا

راكبون هذه السيارة و سائرون في طريق جيد معبد ، فاستقبلتنا قنطرة كبرى على واد ملآن ماء فانحرفت السيارة عن الطريق و نزلت الهويونا ، و أنا أصيح على السائق ، على يمين القنطرة في طريق منحدر ضيق حتى دخلت في الماء شيئاً فشيئاً ، و قد استطعت الخروج منها و أخذ ما أمكن أخذه ، و وقفنا على شاطئ النهر نشاهد غرقها إلى أن غرقت و لم يبق ظاهراً منها شيء ، و كأني أنظر إليها الساعة و هي تغرق، و لما استيقظت لم أحدث الإخوان بالرؤيا المزعجة و استعدت بالله من شرها ، و لم يقع تأويلها إلا بعد : مكيدة السائق ، و تأمر رجال الجمارك ، و نصب اللص المصري الذي أخذ تذكرتها . و لا حول و لا قوة إلا بالله .

و بعد رحلة طيبة في الباخرة التركية استغرقت ثلاثة أيام أو أربعة أيام مارين بإيطاليا التي شاهدنا مساءً أحد براكينها المشهور و هو يرمي بشرر ، و نزلنا مدينة (نابولي) الجميلة و مكثنا بها ساعات ، كما نزلنا بمدينة (مرسيليا) الفرنسية و رأينا الجسر المفتوح الذي يرفع و يخفض لمرور البواخر ، و وصلنا إلى برشلونة التي رأينا من اتساعها و حدائقها و مبانيها و معاملها ما يدهش الألباب .

و قد صلينا مرة في إحدى حدائقها الرائعة جماعة و الإسبان ينظرون متعجبين ، ثم مررنا على عدة مدن و قرى إلى أن وصلنا إلى غرناطة ؛ حيث مكثنا يومين زرنا خلالها قصر الحمراء ، و زرنا إشبيلية و زرنا بها قصورها و صعدنا منارة يعقوب المنصور الموحي (الخردادا) ، و تجولنا بحدائقها الساحرة ، و وقفنا على النهر الكبير الذي طالما تغنى به الشعراء :

وَأَيْنَ حَمَصٍ وَمَا تَحْوِيهِ مِنْ نُزَةٍ وَنَهْرُهَا الْعَذْبُ فَيَاضٌ وَمَلآنٌ^{١٢}

ثم زرنا مالقة و بتنا بها ليلتين زرنا خلالها ما تبقى من قصر العرب و شواهد قبور و بقايا أسوار و المسجد الجامع و منارته و قد حول كنيسة ، و أخيراً وصلنا الجزيرة الخضراء ، و لم نبت بها ، و ركبنا بحر الزقاق إلى مدينة سبتة الأسيرة فك الله أسرها مع أخواتها الأندلسيات ، و أعاد إليهن كلمة التوحيد ، و ما ذلك على الله بعزيز .

و وجدنا بالميناء أقاربنا و هم ولدي الأكبر أوبس وهو طفل ، و ركبنا السيارات إلى الباب السعيدة حيث وجدنا جموعاً من المستقبلين ، أذكر منهم : الأستاذ محمد داود ، و الحاج محمد بنونة ، و غيرهم من الأحبة .

^{١٢} و هذا البيت لأبي البقاء صالح بن شريف الرندي من قصيدته الرائعة في رثاء الأندلس الضائعة ، و التي استهلها بقوله :

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نَقْصَانُ فَلَا يُغَرِّطِيبِ الْعَيْشَ إِنْسَانُ

و الحمد لله الذي جمع الشمل ، و حقق الأمل ، و أعادنا إلى بلدنا و أهلينا ، و هو المسؤول سبحانه أن يمن بالقبول و أن يتجاوز عنا و يغفر لنا ذنوبنا و إسرافنا في أمرنا ، إنه غفور رحيم ، جواد كريم .

و قد بذلنا جهودا كبيرة لتخليص السيارة من أيدي المصريين ، و اتصلنا بالسفير الطريس ، و كتب لنا إلى السفير ابن المليح الفاسي ، كما كتب رسائل إلى هذا الأخير و غيره ، و بعثنا بما يلزم من مال لشحن السيارة بواسطة موظف السفارة ابن المفتي ، و ذهب الأخ محمد مولاطو إلى السفارة بنفسه و كان طالبا هناك بالقاهرة فوجد أن المال ضاع ، و أن السفير لم يفعل شيئا ، و أخبرنا بعد ذلك أن المصريين باعوا السيارة لما استحق عليها من أجرة الأرض بالميناء ، و هكذا تحققت الرؤيا المشار إليها ، و أيسنا من أمر السيارة ، و العوض على الله ، و لا حول و لا قوة إلا بالله . و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم تسليما .

و بعد رجوعنا إلى الوطن فكرت في تدوين هذه الرحلة و المعلومات ماثلة في الذاكرة ، و الأحداث قريبة العهد ، و الأوراق متوفرة ، و كنت حدثت الفقيه ابن تاويت عن ذلك ، و أخبرته أنني سأسمي الرحلة بعد كتابتها : (السير و السرى ، إلى طيبة و أم القرى) ، فأمرني أن أزيد في اسمها: مواصلة السير بالسرى ، و كان العزم أن أفيض في وصف الطرق و المنازل و المدن و القرى مع ذكر ملخصات عن تاريخها ، و أن أثبت كل ما تم الاطلاع عليه من كتب و رسائل و تراجم الرجال الذين اجتمعت بهم أو زرت ضرائحهم ، مع تفصيل القول في الحج و المناسك بذكر الدلائل والفوائد و الحكم في تركيز كاف ، و توثيق معتبر ؛ إلا أن الشواغل و العمل الإداري لتأمين العيش للأولاد و معاكسة الظروف كانت تحول بيني و بين ذلك ، حتى من الله عليّ و قد لزمتم الفراش في أيام عيد الأضحى من عام ١٤١٨ هـ فأمضيت الوقت في استذكار ما مضى مما بقي في الذاكرة عالقا يلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد ، و في النية إن شاء الله تعالى أن أعود إليها لتدارك ما يمكن من ذلك بحول الله .

و كتب هذه الأوراق على عجل و مع معاناة مرض في يومي السبت و الأحد ١٤-١٥ ذي الحجة الحرام عام ١٤١٨ هـ عبيد ربه أبو أويس محمد بن الأمين بوخبزة الحسيني عفا الله عنه بمثله بحي سيدي طلحة الدريج الأنصاري بحروسة تطوان قاعدة شمال المغرب الأقصى .